

احتفاء بالمؤتمر الحضاري :

ثلاث نظرات نقدية

— النقد الاول : في مسؤولية الفكر العربي

رغم ان البيان ينص على « ان اعضاء الندوة في الختام ليعتبرون المفكرين والمثقفين في الوطن العربي مسؤولين مسؤولية مباشرة عن العمل لكسر قيود المعوقات الحضارية في الوطن العربي وفي مطلعها الازهاب الفكري ويؤكدون مبدأ حرية الفكر ويرون في المناقشات التي دارت في هذه الندوة نموذجا له لان خلق الفكر هو ابرز مظاهر التخلف وارشى عوامله » رغم هذا فان البيان ينص في مكان آخر تحت موضوع « في التخلف السياسي » على ما لا بد ان يؤدي بالضرورة الى خلق الفكر وتقييمه . اذ في حديث البيان عن العمل لتغيير الواقع السياسي يقول : « ويستلزم هذا توفير مناخ ديمقراطي يتيح للشعب ان يشارك في بناء مصيره ويلعب المفكرون والمثقفون في هذا المجال دورا اساسيا ولا بد ان يتعاطف هذا الدور بحيث يقودون العمل الشعبي وبحيث يحققون الصلة المرجوة بين مشاعر الجماهير واهدافها وبين الحكم . ولا يتم ذلك الا اذا كان الفكر اخلاقيا نضاليا ملتزما باهداف الامة القومية ومصالحة الجماهير الواسعة » . ما يهمني هنا هو ذلك الاشتراط بان يكون الفكر اخلاقيا ، نضاليا ، ملتزما . مدهش جدا اننا لم نتعلم بعد من تجاربنا الطويلة القديمة الميرة كيف تتحول دائما هذه الاشتراكات « بالالتزام » و « بالاخلاقية » الى اختتام جاهدة اوتوماتيكية تختم بالتحريم والمصادرة على كل فكر نقدي لا يرتدي الشوب الرسمي ولا يلهج بالاناشيد الرسمية المقررة . مدهش جدا ان يتطوع المفكرون العرب باعلان تكريسهم لهذه الاختتام البئس التي تضمن استهوار الفكر الواحد المنزل المقرر المنسج على النقد لانه وحده الاخلاقي النضالي الملتزم بمصلحة الجماهير الواسعة . ما معنى اشتراط ان يكون الفكر اخلاقيا ؟ . اية اخلاق تقصد ؟ الاخلاق السائدة ؟ . وهل يتحتم على الفكر الالتزام بما هو سائد من اخلاق ؟ كيف يمكن ان يحدث التغير اذن ؟ ولماذا لا يكون الفكر حرا في الانشقاق عن الاخلاقيات السائدة انحيازا ومناداة ومناجاة لاخلاقيات لم تولد بعد ؟ وهل حدث اي تقدم حضاري في اي زمن في اية امة سوى عن طريق ذلك الانشقاق عن السائد الحالي والانتماء للمستقبل المجهول ؟ . هل كان الفكر العلمي الا انشقاقا عن اخلاقيات الاساطير والخرافة ؟ هل كان ديكارت ونيوتن ودايون وهيجل ونييتشه وشوبنهاور وماركس وراسل الا انشقاقا عما سبقهم وعاصريهم من اخلاقيات ومن مقدسات ومحرمات ؟ .

ثم ما معنى ان يكون الفكر ملتزما بمصلحة الجماهير الواسعة ؟ ومن الذي يعين ويحدد ويقرر هذه المصلحة ؟ الحاكم ؟ . . الا يقول لنا

ان ندعو جامعة عربية صفة المفكرين والكتاب العرب الى مؤتمر (1) لبحث قضية الحضارة في المجتمع العربي ، بمختلف ابعادها الحالية والمستقبلية والتاريخية ، هو — بلا شك — افتتاح طموح واعد مثقل بالامكانات للطريق الصعب الوحيد المؤدي لاشعال حضارة جديدة بريئة في الشرق العربي : طريق الدراسات الجادة الباهظة والبحث العلمي الموضوعي . . والتخطيط الانساني الخلاق لخريطة المستقبل . طريق بديله الوحيد هو الاستسلام للمستقبل والتطوح عشوائيا في رياحه المتضاربة . ولا شك ان نتاج المؤتمر ، ممثلا في الدراسات الجادة والعميقة المقدمة ، والتعليقات النقدية عليها ، وفي البيان الختامي للمؤتمر ، يدعو حقا للاحتفاء بهذه الظاهرة الوليدة ومساندتها كليا والالاحاق المثلث على مزيد منها ، وعلى اعتمادها وتكريسها ونشرها لتصبح هي اسلوبنا الطبيعي في مواجهة القضايا والازمات ، وفي مناقشتها بالفكر العلمي الصادق المنحرف من كل قيد . لا شك انها مسافة ضوئية تلك التي تقع بين هذا المؤتمر — او الندوة — وبين آخر مؤتمرات الابداء العرب الذي عقد في تونس منذ اكثر من سنة . والذي حفلت كلمات وفوده الافتتاحية وبيانه الختامي باهازيج المدح والفوز والفخر والحماسة . . (2) والذي جاء موفقه من قضية حرية الفكر العربي مثلا فاضحا للتخاذل والتزلف والمضاربة والمزايدة ، والاتفاق على بيع الكتاب (السجناء او الكميين) والاقتراع على ثيابهم . لذلك كله تجيء هذه الندوة الحضارية لتكون المقابل والنقيض لذلك المهرجان الرسمي الزيف . . مقابلا ونقيضا يحملان صدق والم الرغبة في انتشال الوطن العربي المضعف من درك الترددي الحضاري والانساني ، وصدق والم اللهفة على انقاذ الانسان في هذا الوطن ودفعه الى ما فوق اوضاعه الساحقة الطاغية الاكلة للحمة وقلبه وروحه ، والتي لا تترك له سوى الفتات ، فتات الخبز وفتات الشمس وفتات الكرامة وفتات العقل . ويتكامل الاحتفاء بالندوة الحضارية هذه باستقبالها بالنقد الودود بجانب الترحيب الودود . اقدم هنا ثلاث نظرات نقدية تتعلق بالبيان الختامي للندوة .

(1) الندوة التي اجتمعت في الكويت ما بين 7 - 11 ابريل 1974 بدعوة من جامعة الكويت وجمعية الخريجين الكويتية لتدارس ازمة التطور الحضاري في الوطن العربي . . انظر العدد الخامس من الاداب الخاص بهذه الندوة .

(2) راجع تفصيل هذا في مقالي السابق « دراسة علمية لمؤتمر ادبي » — الاداب : مايو — يونيو 1973 .

تاريخنا الحديث جدا ، كما يقول لنا ما نعيشه هذه الساعة نفسها ، كيف ان شرط « الالتزام » هذا هو الذي يستخدمه كل من سطحا على مقاليد اجهزتنا الثقافية والاعلامية سلاحا يذبح به « اعداءه » ! المختلفين معه فكريا ويضمن به افئادهم ونفيهم عن وسائل النشر التي امتلكها وملك عليها ؟ اليس هو الذي استخدمه ويستخدمه اليساريون لمصادرة الفكر اليميني ، واستخدمه ويستخدمه حاليا اليمينيون لمصادرة الفكر اليساري ؟ وفي الحالتين لا يخيم فوق العقل العربي سوى ظل حالك لفكر واحد اوحده احد يمارس كل الاخطاء بكل الحرية في غياب كل نقد له ومحاسبة ومحكمة لاخطائه ؟

ان المنطق اللغوي نفسه ، مجرد التعريف اللغوي البدائي « لحرية الفكر » ، كما لا بد ان يفهمه تلميذ في المدرسة الابتدائية ، يتناقض تناقضا تعريفا وبديها مع هذه الاشتراطات بالاخلاقية والنضالية والالتزام . المعنى الاوحد لحرية الفكر هو حرته في الخروج عن الاخلاقيات السائدة واختراقه للمحرمات تجريبا واختبارا لاساليب واخلاقيات وصيغ مبتكرة . هذا وحده اسلوب التغير والنظور . لذلك كان منتظرا ان يجتمع المفكرون العرب لاعلان ايمانهم بضرورة ان يكون الفكر حرا .. حرا في ان يكون اخلاقيا او ان يكون لا اخلاقيا .. بمعنى ان يكون مختلفا عن الاخلاقيات السائدة . وبضرورة ان يكون الفكر حرا .. حرا في ان يكون ملتزما بما يبدو ويعلن انه « المصلحة العامة » او « رأي الاغلبية » او حتى ما يعلن انه « الامن القومي » و « سلامة الوطن » .. او ان يكون لا ملتزما بكل هذا . لان « كل هذا » قد لا يكون سوى نقيض الحقيقة وسوى الزيف والظيان .. فمن الذي يفضح هذا سوى الفكر الحر ؟

ان اي اشتراط على حرية الفكر هو مبايعة للفهر وللظيان . ان العلاقة بين حرية الفكر وحرية الظيان علاقة عكسية في غاية البساطة وفي غاية القوة . كلما نقصت حرية الفكر ازدادت حرية الظيان .. وكلما ازدادت حرية الفكر تقلصت حرية الظيان . وعلينا ان نختار .

ـ النقد الثاني : في الدين

تجيء كلمات بيان الابداء الختامي في موضوع الدين اقل طموحا وجرأة في مهاجمة واسقاط التزمت الديني في المجتمع العربي من طموح وجرأة « خالد محمد خالد » في كتاباته المختلفة منذ سنوات عديدة ، وهو من رجال الدين ! فهل تكفينا الدهشة امام هذا الموقف ؟ الواقع ان كلمات البيان الختامي المتواضعة الطموح ليست الا تنكرا لمعاني البحث الكاشف الدقيق الذي قدمه اونيس في الندوة . منتها فيه الى ان الوجود العدمي للعربي ، وجوده مستعبدا ومستلبا ، قد تسلسل تسلسلا طبيعيا من هيمنة « اللاهوتانية » ومن الاسقاطات الدينية على المجتمع والدولة والفرد ، كما ان كلمات البيان الختامي هي ايضا ، بدرجة اقل ، تنكر لدعوة د. محمد النويهي في بحثه القيم الذي قدمه في الندوة ، والى « القيام بحملة فكرية منظمة ، متصلة ، شجاعة ، على الفكر التقليدي ، حتى تدخل تغييرا جذريا على فهم الناس لجوهر الدين . » . فالبيان الختامي لم يدع المفكرين لشن هذه الحملة المنظمة المتصلة الشجاعة على الفكر التقليدي ، وانما دعاهم « مناقشة دور الدين في المجتمع العربي المعاصر مناقشة مفتوحة لا تثقلها الحساسيات او يحد منها ضيق الافق وذلك لتحرير الطاقات الروحية الهائلة التي يقجرها الايمان الصافي في الصدور ووضعها في خدمة مجتمع انساني افضل » . ان دعوة الدكتور النويهي الحارة المخلصة الى « تلمس الجوامع التي تجمع بيننا كمفكرين عرب ، بدلا من الالاحاح على الفوارق التي تقسمنا شيئا ومدارس ومواقف واتجاهات » ومحاولته في سبيل ذلك ، في « العثور على الارض المشتركة التي يمكن ان يقف عليها اكبر عدد ممكن من مفكري العرب » .. هما بلا شك دعوة ومحاوله محملتان بالرغبة الصادقة في « لم الشمل » وتوحيد الصفوف

وهذه وان كانت رغبة سامية واملًا جميلا مطلوبًا فان الواقع وتجارية لا تمنح هذا الامل اي امل . اننا نرى في نفس الندوة كيف يقوم د . محمد ابو ريدة لبعقل على بحث د. النويهي - حارصا على افحام «اسم الله» في كلمته - لينتهي الى رفض دعوة د. النويهي « بوجوب اخذ الناس بالنظرة العلمانية الخالصة في كل ما يختص بامور معاشهم وديناهم » . وذلك الرفض سببه ان « معنى هذه الحياة ، وقيمتها وكل ما يعمله الانسان فيها يرتبط بغايات عليا حكيمة ، اعني بالخطه الالهية الشاملة لكل شيء » . وهكذا تلقى الحياة وكل ما يعمله الانسان فيها على السماء ، وهكذا تستمر الدعوة الدائمة للغياب عن الارض والارتباط بالسماء وبغاياتها العليا . وهكذا نود من جديد الى بداية بحث اونيس ، ونصل في النهاية الى حال الانسان العربي المعاصر .. وجوده الشبهي في عالم الاشباح وانعدامه من فوق الارض . غيابه عن الارض ووجوده مستعبدا مستلبا . ان المسألة في موضوع الدين اكثر من مجرد الايمان او عدمه .. او الايمان بماذا ، او كيف ، او لماذا .. واكثر من مجرد الاجتهاد الحكيم في التفسير الحرفي او الرمزي .. ذلك لان الدين يحمل ، بجانب ابعاده النفسية والعاطفية والفكرية، بعدا سياسيا خطيرا ، كان الدين ، وما يزال وسيظل ، يحمل هذا البعد السياسي الخطير ، وان كان هذا صحيحا بالنسبة الى اي دين وكل دين ، فانه في حالة الاسلام يتخذ حجما وثقلا اكبر بكثير . وذلك بسبب الارتباط الذي نشأ منذ البدء بين الاسلام والدولة ، حيث كان الحاكم هو الخليفة هو امير المؤمنين . وكانت السلطة السياسية هي هي السلطة الدينية ، الاثنان واحد وفي واحد . وبذلك تصبح عبادة السلطان جزءا من عبادة الله ، او العكس . وتصبح اوامر الله هي اوامر السلطان ، او العكس . لذلك فان استمرار الصيغة الدينية للدولة يعني استمرار عبادة « الله - السلطان » ، او « السلطان - الله » . ونحن نرى كيف انه كلما ازدادت القورات الدينية في الدولة ازداد وصف الحاكم بالصفات والخلل الدينية ، وازدادت الصفات الدينية التصاقا باسمه . هذا يعني استمرار سيطرة الفكر الواحد الموروث المتجمد ، واستمرار استنلاب الانسان الارضي باسم السماء وعلى ايدي الناطقين باسمها المنحدرين من سلالة الالهة . السننا نرى في كل مكان وفي كل زمن هذا ؟ السننا نرى الان كيف ان اكثر المدافعين عن فضائح نيكسون حماسا وانفعالا وتقوى هو صديقه ومستشاره القسيس الكاثوليكي جون ماكلولين ! بل نرى كيف انه يحول نيكسون الى « نموذج اخلاقي رفيع » !!

على ضوء هذا الوعي الذي لا بد بعيه المفكرون العرب ندهش كيف لم يطالبوا بطلاق الدولة والدين ! وهل ماتت المرأة العربية موتا خرافيا الابعاد سوى نتيجة لكونها عورة في عين الدين لا بد لها ان تحتجب وتستتر وتكثور وراء حوائط البيت انظارا لاحتواء جسد بعلمها في الليل ؟ السننا نرى فيمن يدعون الان لاحياء الدولة الدينية نفس هذه النظرة الى المرأة - العورة ، ونراهم يطالبون باحتجابها وعودتها الى الدور الذي يزعمون ان الله خلقها له ؟ بل وهل كان وراء التهاب الغرائز والهواجس والتشنجات الجنسية تحت سيطر الحرمان والكبت والفصل الوحشي بين الجنسين .. هل كان وراء هذا كله سوى جنون التزمت الديني المدعم بجنون تسلط الدولة ؟

على ضوء هذا كله اليس مدهشا جدا ، اليس محزنا جدا ، ان يجتمع صفوة المفكرين العرب ولا يطالبوا بوضوح بطلاق الدين والدولة ؟

ـ النقد الثالث : غياب البعد الجنسي :

غطت الندوة الفكرية مختلف ابعاد ازمة التطور الحضاري في الوطن العربي ، فكرية وسياسية واقتصادية وعلمية وتربوية ... الخ. وغاب بعد اساسي غيابا كاملا : وذلك هو البعد الجنسي . كما غابت المرأة العربية تماما عن الندوة ، ليس فقط لم تبحث مشكلاتها الهائلة

بتأثير سياطه المتهبة ومزاجه المتطرف وعدوانيته الشاملة الباحثة عن تعويض او انتقام او تفريغ ما .

كل المحاولات لمعالجة ازمة التطور الحضاري العربي التي تفضل في معالجة مأساة الجنس لا يمكن لها ان تنجح . كل ثورة عربية لا تكون الثورة الجنسية بعدا من ابعادها لن تتمكن من تغيير المجتمع . لذلك ندهش اجيء الندوة الفكرية خالية من الجنس ، وندهش لخلو بحث قيم وشامل عن دور التربية للدكتور عبدالله عبد الدائم خلوا تاما من البعد الجنسي ، فرغم ذكره مختلف اسباب تخلف التربية والتعليم في البلاد العربية لا يشير على الاطلاق لكارتة الفصل التصفي بين الاولاد والبنات في مراحل النمو بين الطفولة والجامعة ، وكان هذا لا اثر له على التربية بالمرة ! (٣) . ندهش ان يخلو بيان الابداء من توجيه الاهتمام نحو المأساة الجنسية الشاملة ، ونحو علاجها الجذري المتمثل في التوقف عن الفصل المتوحش بين الجنسين في مراحل النمو الطبيعي او في اية مرحلة على الاطلاق .

* * *

بهذه الملاحظات النقدية الثلاث اعبر عن احتفائي العميق بالندوة - الظاهرة . اقدمها كاجتهادات شخصية على رجاء ان تضيء ولو فكرة واحدة مفيدة .

نيويورك

(٣) قامت في مصر تجارب الاختلاط بين الجنسين في المدارس ، ما زالت قائمة ومستمرة وفي طور التجريب .

الفكر المعاصر

اهم مواد العدد الثاني

* اليسار المصري والفكرة العربية

د. رفعت السعيد .

* اللحظات والساعات الاخيرة في حياة الليبدي

خيرى عزيز

* حوار مع نجيب محفوظ

حول الحرية وادب الشباب والفلسفة ، والثقافة المفيرة .

عاليه ممدوح

* الانقسامات السديمية في الرواية الاميركية

فاضل عباس هادي

* حوار مع جلال خوري : البدء والانتها في المسرح

العربي .

قاسم حول .

* ملف كامل عن النفط :

قصة النفط ، مؤامرة حيكمت خيوطها منذ اوائل القرن العشرين .

اطلب العدد الثاني من الاسواق

الاساسية باعتبارها ركنا هاما في ازمة التطور الحضاري ، بل حتى غابت المرأة نفسها عن الاشتراك في المؤتمر . فكل الاسماء المذكورة في عدد الاداب الخاص بالندوة (٢٢ اسما) هم رجال . وقد كان حريا بتلك الظاهرة العجيبة ، ظاهرة غياب نصف المجتمع العربي عن مؤتمر فكري هام كهذا ، ان تكون بعد ذاتها دليلا عمليا ناطقا على مدى فداحة وضع المرأة في مجتمعنا . البعد الجنسي بالطبع ليس قاصرا على مشكلة المرأة ، لكن لا شك ان محوره الاساسي ومركزه الرئيسي هو وضع المرأة .

ان مشكلة الجنس في المجتمع العربي هي واحدة من اصخم وابهظ مشكلات ذلك المجتمع . بل هي في الواقع الجذر الدفين لمشكلاته الاجتماعية والفردية النفسية والاقتصادية . بما يجعلها تبعا لذلك اساسا ايضا لمشكلاته السياسية . تتمثل المشكلة في ان الشباب العربي . رجالا ونساء ، لا يمارس شيئا ولا يعاني من شيء ولا يستهلك شيء كما يمارس ، ويعاني من ، ويستهلكه الحرمان الجنسي . يصرّف الشباب العربي سنوات تفتحه الاولى منذ بداية المراهقة في حالة مستمرة من الاحباط والمجاعة الجنسية . ويؤدي الحرمان ، طبيعيا ، الى احالة الواقع الى جحيم من الهواجس الخيالية والتصورات المرضية والافعال السرية والعذابات النفسية . ويصبح الجنس شبحا هائلا من الدم والنار واللحم يتراقص باستمرار في عقل وضمير واحلام جسد كل شاب وكل فتاة . يصبح هو الهم الوجودي الاول الذي لا هم سواه . يصبح الهاجس الجنسي هو المستهلك الاعظم لطاقات اللحم والحب والتفتح المهدورة ، يصبح الجنس هو الشغل الشاغل للشباب وللفتاة . ويقضي الشباب العربي ، وكلنا فعلنا ذلك ، كل مراهقته وشبابه الاول ساكبا نفسه الى الداخل ، متأزما ومحزونا وعصيبا وحاد المزاج ، حيث يصبح اقصى الطموح وادوع واجرا الاحلام اختطاف نظرة لفخذ امرأة .. انها كمأساة كاملة ان يكون اعظم احلام الشاب ، في اوج نموه وغنوانه تفتحه على الحياة وتولبه لاكتشافها وخلقها ، وقسوع نظره على فخذ امرأة . حتى مجرد الاكتفاء بوقوع النظرة ، تلك اللذة القصوى التي تبدو عندئذ بعيدة قصة نائية مستجيبة ذات ابعاد شيطانية . يؤدي الحرمان الجنسي فورا الى الهزال العقلي ، كما لا بد ان يؤدي حرمان النحلة من الورد الى تصورها واضمحلالها . فاذا كان الجائع المتضور جوعا المتصق جلده على عظامه قادرا على التفكير السليم يكون الجائع جنسيا ايضا قادرا على التفكير السليم . لا يمكن ان يفكر المحروم جنسيا سوى في الجنس ، اما في شكله المباشر واما متحولا الى اسقاطات مختلفة كالادمان والسوداوية والعصية والتطرف الانفصالي والانحدار النفسي والعنوانية على الاخرين او على النفس والشطط العقائدي او الديني او السياسي واوبئة كاملة مغممة بالانحرافات الفردية والجماعية . وبينما يحدث هذا للرجال ، تتحول الفتاة العربية ، التي تنمو لتكتشف ان لحمها العاري هو الشرف الاعلى للامة والمجتمع والحى والاسرة والرجل والمرأة ، تتحول تدريجيا الى كائن ندي عجيب يكاد ان يكون فاقدا لانسانيته ، كومة من اللحم المحرم العاطل المهمل المعتقل خلف الحوائط وفي اعلاه عقل عصفور . تصير الفتاة دمية ملونة للزينة في نفس الوقت الذي يكون فيه لحمها هو الصورة الاعظم ، والشرف الاعظم ، والشهوة الاعظم ، والهم الاعظم للشباب العربي المتضور .

ان المأساة الجنسية في المجتمع العربي مأساة هائلة هائلة .. هي في اعتقادي في جذور التخلف الحضاري للمجتمع . المجاعة الجنسية الشاملة تؤثر مباشرة في الصحة العقلية للمجتمع ، وفي صحته النفسية كذلك ، تؤثر في توتراته الجماعية المختلفة ، وفي تطرفاته الجماعية المختلفة ، بدءا من التطرفات الدينية ، مرورا بكافة التطرفات الفردية والاجتماعية ، وحتى التطرفات والفتنات السياسية . الصحة العقلية للمجتمع تصبح بكاملها معرضة لمأساة الحرمان الجنسي ومشكلة